كُـلُّ مَـا لَـمْ يَـكُـنْ مِـنَ الـصَّـعْـبِ فـي الْأَنْـ
ـفُـسِ سَـهْـلٌ فِـيـهَـا إذَا هُـوَ كَـانَـا[١]

جدك طعان بغير سنان

يذكر قيام شبيب العقيلي على الأستاذ كافور وقتله بدمشق سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة (٩٥٩م):

[الطويل]

عَـدُوُّكَ مَـذْمُـومٌ بِـكُـلِّ لِـسَـانِ
وَلَـوْ كَـانَ مِـنْ أَعْـدَائِـكَ الْـقَـمَـرَانِ[٢]
وَلِـلَّـهِ سِـرٌّ فـي عُـلَاكَ وَإِنَّـمَـا
كَـلَامُ الْـعِـدَى ضَـرْبٌ مِـنَ الْـهَـذَيَـانِ[٣]
أَتَـلْـتَـمِـسُ الْأَعْـدَاءُ بَـعْـدَ الّـذِي رَأَتْ
قِـيَـامَ دَلِـيـلٍ أَوْ وُضُـوحَ بَـيَـانِ[٤]
رَأَتْ كُـلَّ مَـنْ يَـنْـوِي لَـكَ الْـغَـدْرَ يُـبْـتَـلَـى
بِـغَـدْرِ حَـيَـاةٍ أَوْ بِـغَـدْرِ زَمَـانِ[٥]

= والخوف من الموت يشلّ في المرء زخم داعي الحياة في النفوس، ورغم ذلك فلا بدّ من شرب هذا الكأس، والفرق بين الجبان والشجاع أن الموت سيأتيه ذات يوم عندما تتوفّر دواعيه، ولو لم يفكر هكذا لكان أكبر خاسر لتعريض حياته للأخطار، ولذا فمن الخطأ الجسيم أن يجبن المرء لعلمه اليقيني أن الموت يدركه لا محالة.

(١) ورد البيت في أمالي ابن الشجري ١: ٢٢٦. يُعقّب الشاعر أن ولوج كلّ صعب في البدء تقبّله أو محاولة الإقدام عليه، فإذا حصل كان أسهل ما ظنّ الإنسان، فإذا به يتقبل نتائجه راضياً وقد يكون سعيداً.

(٢) القمران: الشمس والقمر. يُخاطب الشاعر كافوراً أن عدوّه مذموم مكروه من كلّ البشر، حتى لو كان القمران من أعدائه، وهما ما هما من النفع للناس في كلّ زمان، فلا بدّ من ذمّهما وكرههما.

(٣) الهذيان: الكلام اللّامعقول. يُردف الشاعر قوله أن اللّه سبحانه قد سهّل له أن يسمو في ذرى المجد لحكمة اقتضاها ولأمر ما حمل الناس على التقوّل والهذيان في شأن ما آل إليه أمره من عظمة الشأن.

(٤) و (٥) التمس: طلب. يُخاطب الشاعر ممدوحه كيف أن أعداءه يطلبون ويبحثون عن =

بِـرَغْـمِ شَـبِـيـبٍ فَـارَقَ الـسَّـيْـفُ كَـفَّـهُ
وَكَـانَـا عَـلَـى الْـعِـلَّاتِ يَـصْـطَـحِـبَـانِ[١]
كَـأَنَّ رِقَـابَ الـنَّـاسِ قَـالَـتْ لِـسَـيْـفِـهِ
رَفِـيـقُـكَ قَـيْـسِـيٌّ وَأَنْـتَ يَـمَـانِ[٢]
فَـإِنْ يَـكُ إِنْـسَـانـاً مَـضَـى لِـسَـبِـيـلِـهِ
فـإِنَّ الـمَـنَـايَـا غَـايَـةُ الـحَـيَـوَانِ[٣]
وَمَـا كَـانَ إِلَّا الـنَّـارَ فـي كُـلِّ مَـوْضِـعٍ
تُـثِـيـرُ غُـبَـاراً فـي مَـكَـانِ دُخَـانِ[٤]
فَـنَـالَ حَـيَـاةً يَـشْـتَـهِـيـهَـا عَـدُوُّهُ
وَمَـوْتـاً يُـشَـهِّـي الْـمَـوْتَ كُـلَّ جَـبَـانِ[٥]

= الأسباب التي جعلته في تلك المكانة والأمر في منتهى البساطة منوط بإرادة مسبب، فمن أسباب سيادته أن اللّه أقدره على الفتك بأعدائه الذين يجاهرونه بعدائهم له والذين يُضمرون له العداء فأماتهم بنحورهم، وبذا تخلّص منهم أيضاً.

(١) و (٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٩. شبيب هو: شبيب بن جرير العقيلي، من القرامطة ممن كانوا مع سيف الدولة، ولي إمارة معرّة النعمان، فاجتمع إليه جماعة من العرب، خرج على كافور وحاصر دمشق حيث لقي مصرعه ولقد تخلّى عنه سيفه فسهل القضاء عليه، وكأن الناس قد أثاروا بينه وبين سيفه العداء، فشبيب قيسي وسيفه يماني، فإذا به ينقلب عليه، فكان هلاكه.

(٣) المنايا، الواحدة منية: الموت. لقد مات شبيب وخلا الجوّ لكافور ينعم بالسؤدد، ولا غرابة فالموت حقّ وهو الغاية التي يؤول أمر كلّ حيّ من البشر إليها.

(٤) يُندّد الشاعر بشبيب، فقد كان ناراً تثير زوابع الحروب حيثما حلّ، وإن بدت دخاناً لأول وهلة، ولكنها حروب دامية تثير الرعب في النفوس.

(٥) لقد نعم شبيب بحياة عزّ وجاه وسؤدد حتى عدوّه كان يتمنى أن يحيا حياته تلك، ثم كان موته بصحة وعافية يتمنّى الجبناء لو ماتوا تلك الميتة، وفي ذلك مدح له، لأنه لم يمت موت الجبناء لأنه قضى في سبيل قضية سعى لتحقيقها، ولسوء حظه لم يُفلح في مسعاه.

نَـفَـى وَقْـعَ أَطْـرَافِ الـرِّمَـاحِ بِـرُمْـحِـهِ
وَلَـمْ يَـخْـشَ وَقْـعَ الـنَّـجْـمِ وَالـدَّبَـرَانِ[١]
وَلَـمْ يَـدْرِ أَنَّ الْـمَـوْتَ فَـوْقَ شَـوَاتِـهِ
مُـعَـارَ جَـنَـاحٍ مُـحْـسِـنَ الـطَّـيَـرَانِ[٢]
وَقَـدْ قَـتَـلَ الْأَقْـرَانَ حَـتَّـى قَـتَـلْـتَـهُ
بِـأَضْـعَـفِ قِـرْنٍ فِـي أَذَلِّ مَـكَـانِ[٣]
أَتَـتْـهُ الـمَـنَـايَـا فِـي طَـرِيـقٍ خَـفِـيَّـةٍ
عَـلَـى كُـلِّ سَـمْـعٍ حَـوْلَـهُ وَعِـيَـانِ[٤]
وَلَـوْ سَـلَـكَـتْ طُـرْقَ الـسِّـلَاحِ لَـرَدَّهَـا
بِـطُـولِ يَـمِـيـنٍ وَاتِّـسَـاعِ جَـنَـانِ[٥]

---

(١) قصد بالنجم: الثريا. الدبران: منزل للقمر، وهو مشتمل على خمسة كواكب من الثور. يمدح الشاعر شبيباً وإن بدا أنه يُعرّض به أمام كافور، فقد كان شجاعاً باسلاً يردّ أعداءه برمحه فيُعمل فيهم تقتيلاً حتى آذن رحيله فإذا بالدبران تحمل له الموت وتتخلّى عنه نجوم سعده فيلقى مصرعه.

(٢) الشواة: جلدة الرأس. ورغم حذر شبيب وشجاعته، فقد عاجله الموت من حيث لا يحتسب فدكّ رأسه. لقد كان يتحيّن الفرص، يحوم طائراً ناشراً جناحيه وفجأة كانت القاضية فكان مصرعه.

(٣) الأقران، الواحد قرن، بكسر القاف: الكفء في القتال. يسرد الشاعر شيئاً من حياة شبيب، لقد تفوّق على أقرانه يُعمل فيهم قتلاً وسفك دماء حتى كان أن دبر كافور مكيدة أودت بحياته، ومهما تكن تلك المكيدة فقد تخلّص كافور من شبيب بأهون الأسباب.

(٤) المنايا، الواحدة منية: الموت. لقد كان موت شبيب فجأة بسرعة بحيث لم يشعر به أحد ولم يره مخلوق كيف كانت ميتته.

(٥) الجنان: القلب يُعقب الشاعر على ميتة شبيب مشيداً بشجاعته، فلو كانت ميتته بواسطة السلاح لردّ الموت عن نفسه بسلاحه، لأنه بطل شجاع لا يُقهر، ولكن موته كان غدراً وجبانة، وهنا يعرّض الشاعر بكافور لو كان أعمل مكيدته للخلاص من شبيب، فالمكر لا يلجأ إليه إلّا الجبناء.

تَـقَـصَّـدَهُ الْـمِـقْـدارُ بَـيْـنَ صِـحَـابِـهِ
عَـلَـى ثِـقَـةٍ مِـنْ دَهْـرِهِ وَأَمَـانِ(١)
وَهَـلْ يَـنـفَـعُ الْـجَـيْـشُ الْـكَـثِـيـرُ الْـتِـفَـافُـهُ
عَـلَـى غَـيْـرِ مَـنْـصُـورٍ وَغَـيْـرِ مُـعَـانِ(٢)
وَدَى مَـا جَـنَـى قَـبْـلَ الْـمَـبِـيـت بِـنَـفْـسِـهِ
وَلَـمْ يَـدِهِ بـالْـجَـامِـلِ الْـعَـكَـنَـانِ(٣)
أَتُـمْـسِـكُ مَـا أَوْلَـيْـتَـهُ يَـدُ عَـاقِـلٍ
وَتُـمْـسِـكُ فـي كُـفْـرَانِـهِ بِـعِـنَـانِ؟(٤)
وَيَـرْكَـبُ مَـا أَرْكَـبْـتَـهُ مِـنْ كَـرَامَـةٍ
وَيَـرْكَـبُ لِـلْـعِـصْـيَـانِ ظَـهْـرَ حِـصَـانِ(٥)
ثَـنَـى يَـدَهُ الْإِحْـسَـانُ حَـتَّـى كَـأَنَّـهَـا
وَقَـدْ قُـبِـضَـتْ كَـانَـتْ بِـغَـيْـرِ بَـنَـانِ(٦)

(١) المقدار: القدر. لقد كان أمر موت شبيب عجباً، فهو بين أصحابه وبحماية سلاحه، ولكنه القضاء والقدر فلا مردّ له ولا ملجأ منه إلّا إليه.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٩. الالتفاف: الاجتماع. يستفهم الشاعر مستنكراً بأن المقدّر نافذ رغم كلّ الاحتياطات، فشبيب بين جنوده بمنعة وسلاحه بيديه، ومع ذلك كان قضاء اللّه عزّ وجلّ له بالمرصاد، وقد تخلّت عنه إرادته فهوى صريعاً.

(٣) ودى: من الدية. قصد بالمبيت: الليل. الجامل: اسم لجماعة الجمال. الباقر: اسم لجماعة البقر. العكنان: الإبل الكثيرة. ينعى الشاعر على شبيب أنه كان سفّاكاً للدماء فقتل خلقاً كثيرين ثم آن له أن يدفع دية هؤلاء الخلق من نفسه، فكان موته ديتهم جميعاً.

(٤) و (٥) أولى: أعطى. العنان: سير اللجام. يُخاطب الشاعر كافوراً، فقد نال شبيب من نعم كافور ما أوجب عليه العرفان بالفضل والحفاظ على النعمة بشكر منعمها، ولكن شبيباً كفر تلك النعمة واعتصم بسلاحه، فكان مصرعه جزاء كفرانه لأنه ركب العصيان واعتلى متنه بدل أن يركب العرفان ويحفظ على الودّ والطاعة لولي نعمته ومن ولّاه ذلك المنصب الرفيع.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٩. ثنى يده: ردّها. البنان، =

وَعِـنْـدَ مَـنِ الْـيَـوْمَ الْـوَفَـاءُ لِـصَـاحِـبِ
شَـبِـيـبٌ وَأَوْفَـى مَـنْ تَـرَى أَخَـوَانِ[١]
قَـضَـى الـلَّـهُ يَـا كَـافُـورُ أَنَّـكَ أَوَّلٌ
وَلَـيْـسَ بـقَـاضٍ أَنْ يُـرَى لَـكَ ثَـانِ[٢]
فَـمَـا لَـكَ تَـخْـتَـارُ الْـقِـسِـيَّ وَإِنَّـمَـا
عَـنِ الـسَّـعْـدِ يُـرْمَـى دُونَـكَ الـثَّـقَـلَانِ[٣]
وَمَـا لَـكَ تُـعْـنَـى بـالْأَسِـنَّـةِ وَالْـقَـنَـا
وَجَـدُّكَ طَـعَّـانٌ بِـغَـيْـرِ سِـنَـانِ[٤]

= الواحدة بنانة: أطراف الأصابع. يُعقّب الشاعر مخاطباً كافوراً بأنه أحسن إلى شبيب فتلقّى عطاءه بلا مبالاة، فلم يُحسن إمساك ما أعطاه لأنه ثنى يده فلم تكن إرادته تبغي الخير لنفسه ولسواه لأنه لم يُحسن القبض بأصابعه فأفلتت المنحة من بينها وتاهت مع النكران.

(١) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٢٧٩. يُندّد الشاعر بشبيب، ويستنكر عليه موقفه، فهو كافر للنعم غادر بمن أحسن إليه، إنه نموذج للكثيرين أمثاله في عصر اهتزّت فيه القيم وتخلخلت المثل الإنسانية النبيلة في مجتمع تفلّت من كلّ رابط ديني وخلقي.

(٢) يُخاطب الشاعر كافوراً منوّهاً بحظّه ورعاية اللّه تعالى له؛ إنه ملك باركه ربّ العالمين، فكان أول ملك يحوز رعاية ورحمة، وقد جعل اللّه عزّ وجلّ ذلك خصيصة لكافور دون سواه من الملوك، فليس له ثانٍ في الملوك.

(٣) القسي، الواحد قوس. الثقلان: الإنس والجن. يُنوّه الشاعر بحسن حظ كافور؛ إنه ليس بحاجة لاختيار أفضل القسي ليرمي بها أعداءه من البشر والجن، فقسيهم تعود عليهم بالخسران المبين وبها يهلكون كلّ ذلك بما أوتي من رعاية اللّه تعالى له وحسن توفيقه.

(٤) الجَدّ، بفتح الجيم: الحظّ. تعنى: تهتمّ. الأسنّة، الواحد سنان. القنا: الرماح. يُخاطب الشاعر كافوراً إنه ليس بحاجة إلى سائر السلاح من أسنة ورماح وسواهما، فحظّه كفيل بالقضاء على أعدائه دون قتال، فالكوارث تنزل بهم فيتخلّص منهم ومن شرورهم. وقد يُستشفّ من ذلك أن الشاعر يحسد كافوراً على ما أتاه من حسن توفيق وحظّ ملائم مؤاتٍ، فضلاً عن سخرية خفيّة.

وَلِـمْ تَـحْـمِـلُ الـسَّـيْـفَ الـطَّـويـلَ نِـجَـادُهُ
وَأَنْـتَ غَـنِـيٌّ عَـنْـهُ بِـالْـحَـدَثَـانِ(١)
أَرِدْ لِـي جَـمِـيـلاً جُـدْتَ أَوْ لَـمْ تَـجُـدْ بِـهِ
فـإِنَّـكَ مَـا أَحْـبَـبْـتَ فِـيَّ أَتَـانِـي(٢)
لَـوِ الْـفَـلَـكَ الـدَّوَّارَ أَبْـغَـضْـتَ سَـعْـيَـهُ
لَـعَـوَّقَـهُ شَـيْءٌ عَـنِ الـدَّوَرَانِ(٣)

أعانه اللّه وإيانا

وقال فيه:

[السريع]

لَـوْ كَـانَ ذَا الآكِـلُ أَزْوَادَنَـا
ضَـيْـفـاً لَأَوْسَـعْـنَـاهُ إِحْـسَـانَـا(٤)
لٰـكِـنَّـنَـا فِـي الْـعَـيْـنِ أَضْـيَـافُـهُ
يُـوسِـعُـنَـا زُوراً وَبُـهْـتَـانَـا(٥)

---

(١) نجاد السيف: حمالته. الحدثان: مصائب الدهر. يلمّح الشاعر على أن كافوراً ليس بحاجة إلى استعماله لسيوف ليفتك بأعدائه، فها هو شبيب قد هلك بضربة حظّ فإذا بنوائب الدهر تغتاله.

(٢) يُخاطب الشاعر كافوراً بأنه موئل الخير، فالعطاء منه نعمة أرادها أو لم يردها، وكأنه يُذكره بوعده، فإنه آتٍ على ما يعتقد الشاعر لحسن رأيه بكافور، طالما أنه على قيد الحياة.

(٣) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٩. ينوّه الشاعر بحسن حظّ كافور فحتى الظواهر الطبيعية التي لا يستطيع البشر التحكّم بها لأن اللّه سبحانه وتعالى جعلها لتؤدي أدوارها كما شاء، فقد يتوقّف الفلك الدوار عن عمله الذي يُؤديه لكان له ما أراد لما يتمتّع به من حظّ عظيم.

(٤) و (٥) الأزواد، الواحد زاد: طعام المسافر. أوسعنا: أكثر عطاءه. ينعى الشاعر على كافور أنه المتكالب على ما في يده من زاد حمله معه، فلو كان ضيفاً لزاد له في الكرامة ولأوسع المكان والعطاء. ولكنه في الحقيقة صاحب الديار، والمفروض أن يوسّع على الشاعر من عطاياه وكرمه وتكريمه وهو ضيفه، وما يدلّ على بخله أنه يُوسعه مواعيد عرقوبية مجبولة بكذبه وتسويفه ومطله.